

المنكوبون من العلماء بالأندلس

نكبة ابن رشد نموذجاً

د. جمعة شيخة (*)

عنوان هذا البحث يتكوّن من ثلاث كلمات لها أهميتها في ضبط حدود هذا البحث وأبعاده :

1 — الكلمة الأولى : المنكوبون : وتشمل كلّ من تعرّض إلى نكبة أو محنة أو بلاء أو رزية أو مأساة أو مصيبة. وتشترك كلّ هذه المفردات في معنى إلحاق الجهد والمشقة والأذى والألم بالإنسان، سواء أكان ذلك نفسياً أم جسدياً أم نفسياً وجسدياً معاً، فيعيش المرء فترة من حياته قد تطول وقد تقصر في سدم وكرب، وبثّ وكمد.

2 — الكلمة الثانية : العلماء، لم نأخذ هذه الكلمة بمفهوم الاختصاص، ولكن أردناها جامعة لكلّ من له نشاط أدبيّ أو فكريّ أو ديني أو فلسفي.

3 — الكلمة الثالثة : الأندلس : وهي شبه الجزيرة الإيبيرية التي بقي فيها العرب حوالي ثمانية قرون. ولم تكن هذه القرون الثمانية فترات أمن وسلام كلّها، كما لم تكن كلّها عهود حرب واصطدام. وإنما هي الحياة بأفراحها وأتراحها بسرّائها وضرّائها. ولئن اهتمّ الباحثون خاصّة بليالي الأندلس فأشبعوها درسا وتحليلاً، فقد كانت في فردوسنا المفقود ليليّ بؤس أيضاً وقع إهمالها نسبياً. وقمنا لسدّ هذه الثغرة بدراسة حول الفتن والحروب بالأندلس من القرن 11/5 إلى القرن 15-9⁽¹⁾ وتتبعناها في مصدر قلّ ما اعتمد عليه وهو الشعر. فكان بحثنا هذا وصفاً للحمة جماعيّة لا تخلو من مأس ونكبات.

(*) أستاذ بالجامعة التونسية ومتخصص في تاريخ الأدب الأندلسي.

(1) جمعة شيخة : الفتن والحروب ط تونس 1995 (3 أجزاء).

أما هذه الدراسة فانصبّت عنايتنا فيها بالأفراد. وهؤلاء يمثلون نخبة المجتمع الأندلسي : سياسيا وفكرياً وعلمياً. ولقد بدا لنا أن في تتبع ما تعرّضوا له من رزايا ومحن ما يمكن أن نفسّر به — بوجه من الوجوه — أهم سبب من أسباب سقوط الأندلس، وهو جانب عادة ما وقع التغافل عنه. وما هي أسباب هذه النكبات، وما هي أنواعها؟ ومن الأفراد تعرّضوا لها واكتووا بلهيبها؟

لم يكن المعرّي مبالغاً في اللزوميات إذ سمّى هذه الحياة بدار العناء ودار الشقاء وكناها بألم دفر، فقد شاءت الإرادة الأزلية أن ينتقل آدم وحواء من دار النعيم إلى دار الشقاء لخطيئة ارتكبت في الظاهر ولحكمة الإلهية في الحقيقة. وقامت الحياة الدنيا منذ نزول آدم وحواء على ثنائية عجيبة هي سرّ الوجود وكنه الحياة بخيرها وشرّها، بحلوها ومرّها. وفي الإسلام جعل الله من البلاء اختباراً للمرء على قوة عزمته وعمق إيمانه، وأعطى أمثلة من حياة الرسل والأنبياء، فقد تعرّضوا إلى شتى أنواع المحن فصبروا، فكان ابتلاؤهم وصبرهم ضرباً من العناية الإلهية بهم. وكان بعض الصالحين من هذه الأمة يتحرّجون إذا طالت المدة ولم يُصّبهم الدهر ببعض رزاياه، ويعتبرون ذلك نسياناً من الله لهم، ولذا تراهم يبتهجون ويستبشرون إذا نزل البلاء بأحدهم، وفي كتب الطبقات الإفريقية والأندلسية أمثلة على ذلك في حياة العلماء والزهاد والمتصوّفة. لكن يبقى عددهم قليلاً ويعتبر سلوكهم شاذاً بالنسبة إلى الأغلبية السّاحقة من الناس، لأن النكبة مهما كان نوعها هي مبعث للألم. ومن عادة الإنسان أن يشكو للتعبير عن ألمه وللتخفيف عن نفسه. ولهذا السبب سنعتني بالدرجة الأولى بمن نكب وترك لنا أثراً في نكبته أو نُكب وتفاعل معه في محتته غيرهُ، فوصفوا لنا نكبته. فكانت تلك الآثار نبأً فياضاً من أحاسيس النفس ومشاعرها وهي تُعاتب وتستعطف، تشكو وتتألم، تندب وتتفجّع، فمن هم هؤلاء المنكوبون؟

I — أنواع المنكوبين :

إن المتتبع لتاريخ الأندلس خلال القرون الثمانية للتواجد العربي الإسلامي يرى أن من امتحن من أبنائها كثيرون وهم ينتمون إلى كلّ الطبقات في المجتمع الأندلسي من أعلى هرم السّلطة إلى القاعدة تقريباً. فمنهم صاحب السّلطة والنّفوذ كالخليفة والأمير، والحاجب⁽²⁾ والوزير، ومنهم كبار رجال الدّولة كالقادة والولاة والقضاة. وهناك أعوان

(2) الحاجب في الأندلس هو الرّجل الثّاني في الدّولة بعد الخليفة. وهو الواسطة بينه وبين وزرائه.

السُّلْطَان وصنّاعه كالكَتّاب والشّعراء. وينضاف إلى هؤلاء من جمح به طموحه لطلب السُّلْطَة من الثَّائرين والمتأمّرين. إلى جانب هؤلاء ممّن اكتتوا بلهيب السِّيَاسة من قريب أو بعيد نجد أصحاب الجرائم والجنايات. فما هي أسباب هذه النكبات؟

II — أسباب المحن : يمكن حصر هذه الأسباب فيما يلي :

1 — الفتن والحروب : لقد كانت الفتن والحروب سببا في نكبات جماعيّة بالأندلس وخاصةً عند حصار المدن وسقوطها عنوة. لكنّها كانت أيضا سببا في محن أفراد مُعيّنين. ومن أبرز المحن الفرديّة النّاتجة عن الفتن محنة الأمير الشّاعر المعتمد بن عبّاد مع المرابطين. وعن الحروب محنة الشّاعر عبد الكريم القيسي مع النّصارى. ومن حسن الحظّ أن وصلنا ديوانا للشاعر السجين والشاعر الأسير، وفيهما مقطوعات من الشعر الإنساني الخالد، فيها وصف لانكسار النّفس بعد مجدها، وذلكها بعد عزّها، وشقائها بعد نعيمها. قال المعتمد : وقد غار الأمل — في الخلاص — في لهجة اليأس والقنوط (طويل) ⁽³⁾ :

1 — قَضَى وطراً من أهله كلُّ نازِحٍ وكَرُّ يداوي عِلَّةً في الجَوّارِحِ

2 — سِوَايَ فِائِي رَهْنُ أَذْهَمَ مُبْهِمٍ سَبِيلُ نَجَاتِي أَخِذٌ بِالْبَبَاحِ

ولم يبق أمامه إلا كأس الدّلّ يتجرّعه حتّى الثمالة. قال المعتمد يخاطب شاعره ابن اللبّانة، وقد عزم على الرحيل بعد أن زاره في سجنه بأغمات (طويل) ⁽⁴⁾ :

11 — تَسِيرُ إلى أرض بها كنت مُضْغَةً وفيها اكتست باللّحم منك عظامُ

12 — وأبقى أَسَامُ الدّلّ في أرضٍ غُرْبَةٍ وما كُنْتُ لولا الغدرُ ذاك أَسَامُ

ويقدّم لنا ديوان القيسي صورة حقيقيّة عن ظروف الأسير المسلم القرن 9/15 عند النّصارى، وهي ظروف تجعل الأسير يعيش عذابا مادياً ونفسياً متواصلا (الكامل) ⁽⁵⁾ :

(3) ديوان المعتمد ص 186.

(4) ديوان المعتمد ص 177.

(5) ديوان القيسي ص 189.

- 1 — واحسرتي بعد اشتغالي بالعلو
2 — أمسي وأصبح خادما مُتَصَرِّفا
3 — ... وبغسل أقذار الكلابِ تحرّفي
4 — ... وإذا المنامُ أردته أَلْفَيْتُهُ
5 — م ودرسها وتلاوة القرآن
6 — لعبادة الأصنام والصّلبان
7 — في أكثر الأوقات والأزمان
8 — لعظيم خطبي طار من أجفاني

2 — السياسة : يمكن أن نعتبر أن العلاقة بالسلطان — بطريقة مباشرة أو غير مباشرة — في الأندلس من أهمّ الأسباب في نكبة الأفراد. وعادة ما يكون هؤلاء الأفراد من كبار رجال البلاط. والأمثلة على ذلك كثيرة. ففي بلاط قرطبة مثلا، عندما قامت حكومة الجماعة بزعامة أبي الحزم بن جهور، نجد أنّ المشكل الرئيسي الذي يُعاني منه بلاط قرطبة يتمثّل في تلك العناصر المتبقية من فلول بني أمية والتي كانت تحلم دائما بإمكانية إعادة السّلطة إليهم. وقد ظهرت بوادر فتنتين قامت بهما هذه العناصر المناوئة للحكم الجمهوري واتّهم في كليهما الوزير الشاعر ابن زيدون. ورُجّح به في الأولى منهما في السّجن. وفي ديوانه نجد عديد القصائد التي أرسلها إلى أبي الحزم بن جهور مُستعظفا ومُتبرّئا، فدوره في هذه الفتنة — كما أكّد على ذلك مراراً — هو دور الذئب مع إخوة يوسف. فهو إذن مقم فيها إقحاما. قال (كامل)⁽⁶⁾ :

كان الوشاة وقد منيتُ بإفكِهِمْ
أسباطُ يعقوبٍ وكنتُ الذّيبا
وهو في نهاية الأمر بمثابة كبش الفداء احتمل تبعة ما اقترف غيره (بسيط)⁽⁷⁾ :

ما للذنوب التي جاني كبائرها
غيري يُحَمِّلني أوزارها وزري
ومن المعلوم أنّه في المجال السياسي يلعب التّنافس على السّلطة دوره في نكبة الأمراء والحجّاب والوزراء. ونكبة الحاجب المصحفي على يد المنصور بن أبي عامر ما زال يرنّ صداها في المصادر التاريخية والأدبية. ولم يكتف المنصور بالقبض عليه بمفرده، بل قبض عليه وعلى ولده وعلى أهله، واستصفى أموالهم وأمعن في نكاية المصحفي واستجوابه أمام زملائه القدماء. واستطالت محنته أعواما عاش خلالها أشدّ أنواع المعاناة والذلّ وهو يستعطف ابن أبي عامر فلا يرحمه. قال مخاطبا المنصور (البسيط)⁽⁸⁾ :

(6) ديوان ابن زيدون ص 4.

(7) ديوان ابن زيدون ص 9.

(8) ابن الأَبَر : الحلة السّيرة : 265 / 1.

هَبْنِي أَسَاءْتُ فَأَيْنَ الْعَفْوَ وَالْكَرَمَ
 يَا خَيْرَ مَنْ مَدَّتْ أَيْدِي إِلَيْهِ أَمَا
 بِالْغَتِ فِي السُّخْطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ
 إِذْ قَادَنِي نَحْوَكِ الْإِذْعَانِ وَالنَّدَمُ ؟
 تَرْتِي لِشَيْخِ نَعْبَاهِ عِنْدَكَ الْقَلَمُ
 إِنْ الْمُلُوكُ إِذَا مَا اسْتَرْحَمُوا رَحِمُوا
 فَأَجَابَهُ قَائِلًا (الْبَسِيطُ) ⁽⁹⁾ :

الآن يا جاهلا زلت بك القَدَمُ
 أغريت بي ملكا لولا تثبُّثُهُ
 فأئأسُ من العيش إذ قد صرّت في طبق
 نفسي إذا سخّطت ليست براضية
 تبغي التكرمَ لما فاتك الكرمُ
 ما جازلي عنده نطق ولا كَلَمُ
 إنّ الملوك إذا ما استنقّموا نَقَمُوا
 ولو تشفّع فيك العُربُ والعَجَمُ

وتلعب الوشاية والنميمة دورا كبيرا في الايقاع برجال البلاط. وعادة ما يكون
 الواشي والنمّام والضحية من نفس البلاط. وذكبة الوزير ابن عطية على يد عبد المؤمن بن
 علي بعد أن أوغر صدره الوشاة عليه أثناء غيابه بالأندلس نموذجٌ خلّده المنكوب في قطع
 عديدة من شعره. وأول الوشاة به لدى عبد المؤمن هو مروان بن عبد العزيز. وهو واش
 لثيم لأن ابن عطية كان قد سعى لدى بني غانية في الجزائر الشرقية — وكان ابن عبد
 العزيز معتقلا بها — لاطلاق سراحه. فلم يراع هذا المعروف بل خاطب عبد المؤمن وقوى
 في نفسه الهواجس والظنون ليحمّله على البطش بوزيره ابن عطية (الْبَسِيطُ) ⁽¹⁰⁾ :

قُلْ لِلْإِمَامِ أَطَالَ اللَّهُ مُدَّتَهُ
 إِنْ الزَّرَاجِينِ ⁽¹¹⁾ قُومٌ قَدْ وَتَرْتَهُمْ
 وَلِلْوَزِيرِ ⁽¹²⁾ إِلَى أَرَائِهِمْ مَئِيلٌ ⁽¹³⁾
 فَبَادِرِ الْحَزَمَ فِي إِطْفَاءِ نَارِهِمْ
 هُمُ الْعَدُوُّ وَمَنْ وَالَاهُمْ كَاهُمْ
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ
 قسولا تبين لذي لبّ حقائقه
 وطالبُ الثأر لم تؤمن بوائقه
 لذلك ما كُئِرت فيهم علائقه
 فربّما عاق عن أمر عوائقه
 فاحذرْ عدوك واحذرْ من يصادقه
 والحقْ أبلجْ لا تخفَى طرائقه

(9) ابن الأَبَر : الحَلَّة السَّيْرَاء : 265 / 1.

(10) الْمُقَرِّي : «نفع الطيب» 4/5-163.

(11) طيور ريشها أبيض وصدرها أسود : شَبَّه المَرَابِطِينَ بهذه الطيور لأنَّهم في نظر أعدائهم الموحدين :
 هم بيض اللباس وسود القلوب.

(12) يقصد ابن عطية المنكوب.

(13) الضمير في «أرائهم» يعود على المَرَابِطِينَ.

وقد يتعرّض بعضُ رجال البلاط إلى الابتلاء بسبب غيرة السلطان من بعض أفراد عائلته ممّن يتوقّع منافستهم له في الحكم. وقد نكب هشام بن عبد الرحمن الداخل بقرطبة أبا المخشى عاصم بن يزيد⁽¹⁴⁾ غيرة من أخيه سليمان. وطلب المنصور الموحدي أبن عبد الله بن عيَّاش⁽¹⁵⁾ لأنه من صنائع أخيه الرشيد. وسمّ عثمانُ بن عبد المؤمن الكاتب أبا محمّد ابن عيَّاش⁽¹⁶⁾ لأنّه أرسل رسالة مدح لأخيه أبي حفص.

وقد يهزّ بعضهم الطّموح إلى السّلطة فيسعى إليها فيُنكب قبل الوصول إليها أو بعدها. وخير مثال على ذلك أبو الوليد محمّد بن عمر المعروف بابن المنذر فقد نكبه زميله ابن وزير بعد أن كانا يداً واحدة في الثورة على المرابطين. ولم يكنف بسجنه بل سمل عينيه. ولئن تألم المنكوب لفقد بصره فقد ألمه أكثر أن رأى إخوانه يتخلّصون منه وهو في محنته. وقام بعضهم بطعنه من الخلف. قال يشكو حاله إلى صديقه أبي بكر بن المنخل (كامل)⁽¹⁷⁾:

إيه، أبا بكر، ومّا من أخ	ناديتُ غيـرَكَ لم يُجب لندائه
عثرت بي الدنيا فأصبح مُعرّضاً	عَنّي كَأَنّي لم أدن بإخائه
ومنحته ودي وصّنت إخاءه	من نائبات الدهر حال بلائه
فعدا عليّ ولم أظنّ ببغيه	وأنا بحالٍ من أمانِ عدائه

3 — التّنافس الفكري :

ومن أخطر هذه الأسباب التّنافس غير النّزيه بين رجال الفكر بالأندلس. وهناك ظاهرة في المغرب بصفة عامّة والاندلس بصفة خاصّة هي استنقاص العلماء والأدباء لإنتاج غيرهم. وقد اشتكى ابن بسّام من هذه الظّاهرة في مقدّمة كتابه الذّخيرة. ولئن كان من الطبيعي أن تنشأ بعض الحزازات من جرّاء التّنافس بين المفكرين والأدباء والعلماء، فمن المؤسف أن تتحوّل هذه الحزازات إلى حقد دفين أو عداة سافر. فتلقّق التّهم جزافاً لا يغار صدر صاحب السّلطة وتخويفه من المُستهدف. وهذا ما وقع لابن حزم أجمع أهل الأندلس

(14) للمغرب ك : 123 / 2.

(15) للمغرب : 81 / 2.

(16) للمغرب : 225 / 2.

(17) ابن الأبار : الحلة : 209 / 2.

قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة — فقد شَنَعَ عليه الفقهاء وطعنوا فيه، فقال في نكته مما يدل على صبره ورباطة جأشه (بسيط)⁽¹⁸⁾ :

لا يَشْمَتُنْ حاسدي إنْ نكبةً عَرَضَتْ فالدهرُ ليس على حالٍ بمُتْرَكٍ
ذو الفضل كالتَّبر يُلقَى تحت مَترَبَةٍ طوراً، وطوراً يُرى تاجُاً على مَلِكٍ

وهذا ما فعله الفقهاء في العهد الموحدى مع ابن رشد أكبر فيلسوف عرفته القرون الوسطى حتى نكبه الخليفة المنصور الموحدى.

4 — أسباب شخصية :

وهذه متعددة الجوانب كالتنافس في حب امرأة فقد نُكِبَ أبو جعفر بن سعيد لمزاحمته أبا سعيد بن عبد المؤمن في حب حفصة الشاعرة. وكان كل منهما في حبها على مثل الرِّفْض للآخر، ووجد حساد أبي جعفر السبيل إلى إغراء أبي سعيد به. «فكان مما نُمي به عنه أن قال لحفصة يوما : وما هذا الغرام الشديد به، يعني السيد أبا سعيد — وكان شديد الأُدْمَة — وأنا أقدر أن اشتري لك من الغرض أسوداً خيراً منه بعشرين ديناراً. فجعل السيد يتوسل له المهالك»⁽¹⁹⁾ إلى أن قتله. أو كالغزل بامرأة من أقرباء السلطان، فقد قُتِلَ الوشاح ابن النغرة لأنه تغزل بأخت عبد المؤمن بن علي في موشحه المشهور المعروف بالعروس. ومطلعه⁽²⁰⁾ :

من يَصْصِيْدُ صَيِّدًا فليُكُنْ كَمَا صَيَّيْدِي
صَيِّدِي الغَزَالُ من مَـراتع الأَسُودِ

أو كارتكاب جناية، فقد امتحن الشاعر الطليق الرواني لأنه قتل والده الذي زاحمه في حب جارية⁽²¹⁾، وسُجِنَ أبو عبد الله محمد بن مسعود لوهن في دينه⁽²²⁾، واعتقل الشاعر يحيى بن حكم الغزال لاستيلائه على مال الأعشار⁽²³⁾.

(18) النَّفْع : 82/2.

(19) النَّفْع : 224/1.

(20) الرِّجْل في الأندلس للأهواني ص 112.

(21) الحلة : 220/2.

(22) الحلة : 388/3.

(23) النَّفْع : 9/3 — المطرب 133.

III - أنواع المحن :

يُمكن ترتيب هذه المحن من حيثُ قسوتُها وهولها وشناعتها إلى :

1 - غضب السلطان وجفوتُه : وهذه محنة باعتبار ما سيعيشه المغضوب عليه من قلق وحيرة وخوف. فهو يتوقَّع دائما أن يتحوَّل الغضب إلى سخط ومنه إلى عقاب. ويؤلِّد هذا الانتظار لدى النفوس الحسَّاسة كنفوس الشعراء عذابا نفسيا قد يكون أشدَّ من عذاب الجسد. ولقد عاش ابن الأَبَر الاندلسي حالة القلق هذه عندما غضب عليه أبو زكريا الحفصي ثم ابنه المستنصر. وألَّف في الموضوع كتابه «اعتاب الكتاب» في محاولة منه لإرضاء أبي زكريا. وعاش نفس الحالة تقريبا الشاعر ابن اللَّبانة عندما غضب عليه ناصر الدولة صاحب ميورقة بالجزائر الشرقية. وقد تؤدِّي هذه الحالة بالمرء إلى أن ينشد راحة البال واطمئنان النفس في حياة بسيطة هادئة، ولو كان ذلك على حساب ما اكتسبه من جاه ومال. قال أبو جعفر بن سعيد وهو يتوقَّع كل الشرِّ من السيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن (كامل)⁽²⁴⁾ :

من يشتري مني الحياة وطيبها	وزارتي وتأدبي وتهذبي
بمحلِّ راعٍ في ذرِّي مملومة	زُويْتُ عن الدُّنيا بأقصى مرَّتب
لا حكم يأخذه بها إلَّا لمن	يعفو ويرؤف دائما بالمدنَّب
فلقد سئمت من الحياة مع امرئ	مُتغضب متغلب مترتب
الموت يلحظني إذا لاحظته ⁽²⁵⁾	ويقوم في فكري أوان تجنَّبي
لا أهتدي مع طول ما حاولته	لرضاه في الدُّنيا ولا للمهْرَب

وقد يضطرَّ المغضوب عليه إلى الاختفاء إذا طلبه السلطان، لأنه أصبح متيقِّنا من أنَّه سيتعرَّض إلى العقاب لا محالة. وهذا ما فعله أبو عبد الله محمد بن عيَّاش عندما طلبه المنصور الموحدي لا لشيء إلا لأنه من أصحاب أخيه الرَّشيد الذي قتله. وإذا كان ابن سعيد قد جنى على نفسه بما قاله في تحقير الأمير الموحدي، فإنَّ ابن عيَّاش شعَّر بأنَّه مظلوم فقال (كامل)⁽²⁶⁾ :

(24) النَّفح : 225/1.

(25) الضمير يعود على الأمير الموحدي أبي سعيد عدوَّ الشَّاعر.

(26) المغرب : 81/2.

بئس الحياة لخائف مترقب لم يلفَ في تخليصه من مذهب
 قد غُلقت أبوابُ كلِّ شفاعاة في وجهه جَوْرًا ولمَّا يُذنب
 ما ذنب من وفَى بخدمة من به عرف النِّعيم وذاق عذب المشرب⁽²⁷⁾
 يا شمس قد أثرت في بدر الدجى وخسفته لا تحفلن بكوكب⁽²⁸⁾

وقد اضطرَّ كذلك ابن زيدون إلى الفرار من السَّجن والاختفاء بعد أن يئس من عفو ابن جهور عنه. وذهبت قصائده في الاستعطاف والاسترضاء سُدًى.

ويتحوَّل غضب السلطان أحياناً إلى عزل المغضوب عليه وتصفية ماله ومصادرته دون كشف حاله. وهذا ما فعله المنصور الموحدى مع الوزير أبى سليمان داود بن أبى داود بعد سعي الوشاة به لديه. وقد يتجسَّم هذا الغضب في تغريب المنكوب عن وطنه. وهذا ما فعله الحكم الربضي مع بعض فقهاء قرطبة عندما ثاروا عليه في بداية القرن 9/3. فمنهم من شردهم في بلاد الأندلس ومنهم من أخرجهم نهائياً منها.

2 - السَّجَن : يعتبر السَّجَن المحنة الأكثر انتشاراً بالأندلس. والسَّجَن أنواع أشدها وطأة على السجين المطبق : وهو عبارة عن دهليز تحت الأرض يعيش فيه الأسير أو السَّجين في ظلام دامس، لا يفرِّق بين ليله ونهاره. وقد يكون فيه مقيداً بالقيود والأغلال. ولنا في الشعر الأندلسي روائع في وصف السَّجين المقيد الراسب في الأغلال. قال القبسي واصفاً حاله وهو أسير بآبرة (الكامل)⁽²⁹⁾ :

في دار كُفِرَ اظلمت أرجاؤه حتَّى تبدَّت للعيان ظلاما
 في قعر بيت غولُه مجموعةٌ والهَامُ فيه قد أجاب الهاما
 مالي به أنس سوى تذكركم ومَدَامع حمر تفيض سجاما
 وبجامع جُمعت يداي وقُرمة مَنعت قيامي إن أردتُ قياما⁽³⁰⁾
 والشَّبَّ والابريق كلُّ منهما نُصِبَ العيان بجانبِ قد قاما⁽³¹⁾

(27) يُشير الشَّاعر إلى خدمته لدى الأمير الموحدى الرَّشيد.

(28) شَبَّ الشَّاعر المنصور بالشمس والرَّشيد بالبدر ونفسه بالكوكب.

(29) ديوان عبد الكريم القيسي ص 102/3.

(30) الجامع : غلَّ يشدُّ الأيدي إلى الرِّقبة. والفُرمة : أغلال يُجعل فيها الرَّجل والعنق (المصدر السابق تعليق 2).

(31) الشَّبَّ : خشبتان تشدَّ بهما ساقا الأسير. والإبريق هو الشَّبَّ (المصدر السابق).

ومن سلبيات التاريخ العربي الإسلامي القيام بسمل عيني السّجين أو قطع لسانه. وهذه الطريقة أصبحت من التّقاليد السّياسية للتخلّص من المنافس، أو على الأقلّ الحدّ من خطورته بقطع الطريق أمامه لطلب السّلطة أو السّعي إليها مرّة ثانية. وهذا ما فعله ابن وزير مع صديقه ابن المنذر بغرب الأندلس أثناء ثورة المريدين على المرابطين. وقد يكون الأمر مجرد رغبة في التشفّي صادرة عن نفس حاقدة غيورة. فهذا هشام بن عبد الرحمن الدّاخل يقطع لسان الشّاعر أبي المخشّى عاصم بن زياد ويَسمل عينيه لأنّه مدح أخاه سليمان، وكانت بينهما جفوة⁽³²⁾. ولا تتورّع السلطة المرابطيّة من سمل عيني امرأة ناسكة رفضت الكشف عن أسرار المريدين من رُفقاءها أثناء ثورتهم عليها بالأندلس⁽³³⁾.

ولقد كان الشّعْر دوما أداة ووسيلة لدى الأسير أو السّجين في محاولاته للخلاص من محنته. فقيلت قصائد الاسترضاء والاستعطاف لصاحب السلطة والنفوذ أو لذوي الجاه والمال، وفيها تصوير لنماذج من نفوس إنسانيّة مُعذّبة تعيش — بعد أن فقدت حرّيتها وكرامتها — بين ألم الواقع وأمل الخلاص. قال الوزير ابن عطية يستعطف عبد المؤمن بن علي (طويل)⁽³⁴⁾:

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بِحَمْلِ قُلُوبٍ هَدَاهَا الْخَفَقَانُ
وَكُتِبَ لَهُ مَعَ ابْنِ لَهُ صَغِيرٍ (بسيط)⁽³⁵⁾ :

عَطْفًا عَلَيْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ بَانَ الْعِزَاءُ لِفِرطِ الْبِثِّ وَالْحِزْنِ
قَدْ أَغْرَقْتَنَا ذُنُوبُ كُلِّهَا لَجَحٍ وَعَطْفَةٌ مِنْكُمْ أَنْجَى مِنَ السُّفْنِ
وَصَادَفْتَنَا سَهَامٌ كُلُّهَا غَرَضٍ وَرَحْمَةٌ مِنْكُمْ أَوْقَى مِنَ الْجُنِّ

وتجد هذه القصائد أحيانا صدى في نفس مخاطبها فيصدر العفو أو يتمّ الفداء فتتجلى الغمّة وينزاح الكابوس، ويتحوّل الاستعطاف مدحا وثناء والاسترخاء تنويها وشكرا. قال ابن الأَبَر وقد جاءته البُشرى بعفو السّلطان الحفصي عليه (مخلع البسيط)⁽³⁶⁾ :

(32) المغرب : 2 / 123.

(33) د. عصمت دَنْدَش : الأندلس في نهاية المرابطين ص 61 ت 77.

(34) الإحاطة : 1 / 276.

(35) النّفح : 5 / 185.

(36) إعتاب الكتاب : ص 259.

قسابلتُ نعماك بالسَّجود لله من عطفة وجُود
 ولم أجد للحياة عدما وفي وجود الرضى وجُود
 قد وصل الأمن والأمانى بعد المضادة والصَّدود
 يا مُبدئاً في العُلا مُعيداً أيدت بالمُبدئي المُعيد
 بأيِّ حممـد وإن تناهى أثني على صنعك الحميد
 صفحت عمدا عن الخطايا وتلك من عادة العميد

وهناك أمثلة متعددة في التاريخ الأندلسي يحلّ فيها محلّ غضب السلطان رضاه
 فيسعف السجين بالسَّراح. فقد عفا المنصور بن أبي عامر على الطليق المرواني وأخرجه
 من سجنه، وعفا عبد المؤمن بن علي على عبد الملك بن سعيد وأمر بتسريحه بُكرة فقال
 ابنه أبو جعفر وقد التقى به وجها لوجه (طويل)⁽³⁷⁾ :

طلعت علينا كالغزالة بالضحى وعزّك طمّاح ووجهك مُشرق
 فغفرا لذنب الدهر أجمع إنه أتى اليوم من حُسناه ما هو أليق

3 — القتل :

وقد تتحوّل المحنة من السَّجن والأسر إلى ما هو أشدّ وأنكى وذلك عندما تصول
 النفس الحاقدة وتجول، فيختفي كلّ إحساس بالرحمة أو شعور بالشفقة. فلا يخرج
 السَّجين من سجنه إلا بعد أن تفيض روحه أو تُخمد أنفاسه. فالتعذيب قد يؤدي إلى الموت
 كما وقع ليحيى اليرغواطي الزَّاهد فقد أدّى به «تسوّر حمى السياسة إلى مصرع السوء.
 فجلد جلدا عنيفا بين يدي السلطان، كان سبب وفاته في المطبق»⁽³⁸⁾. وطول سجن
 المنكوب مع كبر سنّه قد يؤدي إلى حلول أجله كما وقع للحاجب جعفر الحفصي. وقد
 يقتل خنقا كما كانت نهاية ابن الخطيب أو قُعصا بالرّمّاح كما فُعل بابن الأبار. أمّا عادة
 دسّ السمّ في المأكّل والمشرب فعادة معروفة كما وقع للكاتب أبي محمد عبد الغني بن
 طاهر مع عثمان بن عبد المؤمن⁽³⁹⁾. كما جرت العادة بقطع رأس المنكوب بالسيف أو شقّه
 بطبرزين كما فعل المعتمد بن عباد بشاعره محمد بن عمّار.

(37) النّفع : 191 / 4.

(38) الإحاطة : 427 / 4.

(39) المغرب : 225 / 2.

4 — التمثيل :

وقد تنعدم إنسانية الإنسان في معاملته لأخيه الإنسان. فلا تكتفي النفس البشرية الحاقدة بموت المنكوب، فتمثل بجثته فيتم صلبها. والصلب ظاهرة لثن كانت سلبية، إلا أنها — مع الأسف — ظاهرة معتادة في كامل التاريخ العربي الإسلامي. ولم يتورع عنها حكام العرب مشرقا ومغربا. وعادة ما تُصلب الرؤوس أو الأجسام على أسوار المدن أو على أبوابها أو في أعلى جذوع النخل قال أبو العباس الجراوي في الصّابوني الثائر وقد صُلبَ (كامل)⁽⁴⁰⁾ :

إني لأعجبُ من خساسة عقله نسي الذّنوب فخانَه الغفرانُ
وغدا على مشروعة رَهْن الرّدى فالجوّ قِبر والهوا أكفانُ

وقد تحرق جثّة المنكوب أو بعضها. وتترك في العراء دون دفن كالبهيمة العجماء. وهذا كان مصير أعظم رجل عرفته الثقافة العربيّة بالأندلس في العهد الغرناطي، أنه ابن الخطيب الذي خُنق في سجنه وعبثت الأيدي الآثمة بجثته حرقا قبل دفنه. وكذلك مصير أكبر متصوّف عالم عرفته الأندلس في القرن 12-6، إنه ابن بُرجان الذي أمر علي بن يوسف ابن تاشفين — مع تقواه — أن يُترك في العراء — بعد موته — دون دفن.

والغريب أن بعضهم يجد في روائح الأجسام المتعفّنة طيبا عطرا يحلو له استنشاقه، ومنظرا بهيا يحلو له رؤيته كالمعتمد ابن عبّاد مع رؤوس أعدائه في إشبيلية وقد غرسها في حديقته وكالمأمون الموحّدي مع شيوخ الموحّدين الذين بايعوه ثم نكثوا بيعته فصلبهم على الأشجار والأسوار ومثّل نظره برؤيتهم أيّاما وشهورا، وقال متشفيا (كامل)⁽⁴¹⁾ :

أهل الحرابة والفساد من الورى يُعزّون في التشبيه بالذّكار
ففسادُه فيه الصّلاحُ لغيره بالقطع والتّعليق في الأشجار
نكّارُهم زكّرى إذا ما أبصروا فوق الجذوع وفي ذرى الأسفار
لو عمّ عفوّ الله سائر خلقه ما كان أكثرهم من أهل النّار

(40) زاد المسافر ص 49.

(41) الإحاطة : 1/ 446.

4 — حرق الكتب :

مهما كان التعذيب مؤلماً والقتل قاسياً والتمثيل شنيعاً، فإنّها كلّها تصيب الفرد من الأمة أو الجماعة منها. أمّا حرق الكتب فهو نكبة الأمة بأسرها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لأنها عمليّة إيقاف لنموّ العقل وبالتالي للتطوّر الفكري والحضاري. لهذا تُعتبر الجريمة الكبرى ضدّ الإنسانية قاطبة.

وفي الأندلس تعرّض العقل البشري للمصادرة وتعرّض إنتاجه إلى الإتلاف. كان ذلك عندما تتواطأ السّلطات الرّوحية والزّمنيّة فتحاول كلّ منهما مجازاة الأخرى ومداراتها خدمة لمصالحها : فالأولى تقف في وجه كلّ خارج عن السّلطان — وإن كان جائراً — باعتبار أنّ القيام بذلك قولاً أو فعلاً فتنة. فالفتنة أشدّ من الكفر. ومقابل ذلك تقوم الثانية إرضاء للأولى باتّهام كلّ من يعارضها أو يكشف عوراتها بالزّندقة وهي الكفر بعينه.

وفي هذه الأجواء المخنقة لا يبرز على السّطح إلا من مرضت نفسه ومات ضميره، وفسدت نيّته وجمد عقله، وانقطع عمله وانعدم نفعه. ومقابل ذلك تكثر مطالبه التي هي إلى الشهوات أشبه، ويشتدّ طموحه الذي هو إلى التّكالّب أقرب. وشعارهم جميعاً بذل المجهود الأدنى للحصول على النّفع الأكبر.

هذا ما وقع مع الأسف — في فترات الانحدار إلى الهاوية في بلاد الأندلس. فقد أصبح فيها الدّين وسيلة والسياسة نفاقاً. وبات الحقّ مهدوراً والعمل ممجوجاً. وأضحى المجد ممّقوتاً والمجتهد مرفوضاً. وراجت سوق النّفاق والرّياء، فكثرت السّعاية واتّسع مجالها. وازدهرت النّميمة وفتحت أبوابها. وفوّق المنافقون من أدعياء الفكر سهامهم نحو إنتاج العقول النّيرة فأصبح مستهدفاً لأنه يفضح زيغهم ويكشف خداعهم ويشنّع بأهوائهم. فعمدوا نكاية وتشقيّاً إلى الدّسائس يحيكونها وحفلات العزل والحرق يقيمونها قرباناً لشهواتهم. فأشعلوا النّار المحرقة لإطفاء نور المعرفة، وأجّجوا نار الحقد لإخماد نور العقل. وهكذا أحرقت كتب ابن حزم إفكاً، ومصنّف الإحياء للغزالي بهتاناً، ومؤلّفات ابن رشد زوراً. ألم يُشهر ابن حزم في وجههم —

وهم الكسالى عقلا وجسما — سيف الاجتهاد الذي لا ينبو؟ ورشقهم الغزالي — وهم المخادعون قولا وفعلًا — بسهم الإيمان الذي لا ينكسر؟ ورماهم ابن رشد — وهم الجامدون فكرا وإحساسا — بنبل الحقيقة الذي لا يزيغ؟ ومن العجب أن احترق الحارق فكان وهما وسرابا، وبقي المحروق فأضحى جوهرًا ولبابا وهذا سرٌّ من أسرار أقول الأندلس سياسيا واجتماعيا وبقائها — نسبيًا — حضاريًا وفكريًا. وهو سرٌّ قد لا نكون فهمناه — نحن العرب — إلى اليوم.

IV — محنة ابن رشد :

يمكن أن نعتبر محنة ابن رشد نموذجا لمحن كل العلماء ببلاد الأندلس عبر مختلف العصور التي مرّت بها. وليس غایتنا في هذا المقام تفصيل القول في أسباب هذه المحنة ونتائجها. وإنما هدفنا هو التأكيد على أنّ السّعاية بالمرء والتشنيع عليه، وتأويل أقواله وأفعاله للثّيل منه كانت وما زالت الوسيلة الفعّالة والأداة المحبّذة في يد أصحاب النفوس المريضة إذا وجدت — وقد لبّست الحقيقة بكثير من الزّور والعار — تجاوبا مع صاحب السلطة والقرار.

وليس أفضل من الاعتماد على مصدرين أساسيين تعرّضاً لمحنته ابن رشد لنقدّم رواية عنها مُختصرة ولكنّها معبّرة هذان المصدران هما «سيرة ابن رشد» للأنصاري (مخطوط) و«عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة (مطبوع).

قال الأنصاري «لما كان التلّوم⁽⁴²⁾ من المنصور بمدينة قرطبة وامتدّ بها أمد المقام، وانبسط النّاس لمجالس المذاكرة تجددت للطالبيين أقاتهم⁽⁴³⁾، وقويّ تألبهم واسترسالهم، فأدلو بتلك الألقيات وأوضحوا ما ارتقبوا فيه من شنيع السّوءات الماحية لأبي الوليد كثيرا من الحسنات. فقرئت وتداولت أغراضها ومعانيها وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلّت عليه أسوأ مخرج. وربما ذلّ لها مكر الطالبيين، فلم يكن عند اجتماع الملأ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام. ثم أثر الخليفة فضيلة الإبقاء، وأغمد السيف التماس جميل الجزاء، وأمر

(42) تلّوم على الأمر : تلبّث. وهنا بمعنى : أقام ولبّث.

(43) الطالبون : المقصود بالطالبيين : المناوئين لابن رشد والسّاعين لنكبته. فقد سكتوا حيناً ثم أعادوا الكرة بعد أن أطلال المنصور الموحّدي إقامته في قرطبة.

طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين، وتعريف الملأ بأنه مرق من الدين، وأنه استوجب لعنة الضالين. وأضيف إليه القاضي أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولي في هذا الازدحام⁽⁴⁴⁾، ولُفّ معه في حريق هذا الملام لأشياء أيضاً نُقمت عليه في مجالس المذاكرة، وفي أثناء كلامه مع توالي الأيام...»⁽⁴⁵⁾.

ولئن كنّا ننزّه أن يكون علماء قرطبة الأفاضل قد شاركوا في مقاضاة الشّارح الأكبر، فإنّ من سَعَوْا به وشنّوا عليه قاموا بمحاكمته زوراً. ونال ابن رشد ورفاقه من هذه المحاكمة المغرضة «ما شاء الله من الجفاء، وتفرّقوا على حُكم من يعلم السرّ وأخفى» ثم أمر أبو الوليد بسكنى أليسانة لقول من قال: إنه يُنسب في بني إسرائيل وأنه لا تُعرف له نسبة في قبائل الأندلس»⁽⁴⁶⁾.

وذكر الأنصاري أسباباً خفيفة لنكبة ابن رشد، هي في نظرنا أسباب ثانوية بالنسبة إلى ما ذُكر آنفاً. قال: «ويذكر أن من أسباب نكبته هذه اختصاصه بأبي يحيى أخي المنصور، والي قرطبة»⁽⁴⁷⁾. وأورد ابن أبي أصيبعة أسباباً أخرى قال: «ومما كان في قلب المنصور من ابن رشد أنّه كان متى حضر مجلس المنصور، وتكلّم معه أو بحث عنده في شيء من العلم يُخاطب المنصور بأن يقول: تسمع يا أخي. وأيضاً فإنّ ابن رشد كان قد صنّف كتاباً في الحيوان، وذكر فيه أنواع الحيوان، ونعت كلّ واحد منها. فلمّا ذكر الزّرافة وصفها ثم قال: وقد رأيت الزّرافة عند ملك البربر، يعني المنصور. فلمّا بلغ ذلك المنصور صُعّب عليه. وكان أحد الأسباب الموجبة في أنّه نقم على ابن رشد وأبعده»⁽⁴⁸⁾.

ولئن سعت قرطبة بآبن رشد ونَجَحَتْ، فقد عملت إشبيلية على تخليصه ووَصَلَتْ. قال ابن أبي أصيبعة: «وبَقُوا (أي ابن رشد ورفاقه) مدّة (في منفاهم). ثمّ إنّ جماعة من

(44) وكان مع ابن رشد في نكبته زيادة على أبي عبد الله الأصولي، أبو الربيع الكفيف، وأبو العباس الحافظ، والشّاعر القرابي (ابن أبي أصيبعة ص 532).

(45) أرنست رينان: ابن رشد والرّشدية. ترجمة عادل زعير ط. القاهرة 1957، ص 438-444.

(46) المرجع السّابق.

(47) المرجع السّابق.

(48) المرجع السّابق.

الأعيان بإشبيلية شهدوا لابن رشد أنّه على غير ما تُسب إليه، فرَضِي المنصور عنه وعن سائر الجماعة، وذلك في سنة : 595هـ»⁽⁴⁹⁾.

ولئن استنقص المنافقون ابنَ رشد ورفيقَه أبا عبد الله فلعنُوهُما وتَقَلُّوا في وجْهِهِما وأحرقوا كُتُبَهُما، فقد أنصفهُما التَّاريخ قديما وحديثا، قال الأنصاري : «وليس في زَمَانِهِما من بكمالهما، ولا من نَسَجَ على منوالهما»⁽⁵⁰⁾.

إن هذا الحكم الذي لا رجوع فيه هو حكم لابن رشد ولرفيقه ولكل علماء الأندلس ممّن امتحنوا ظلما وعدوانا. وهو شهادةٌ فخر واكبار على صدر العالمين الكادحين، وشهادة خزي وعار على جبين التّافهين المزيّفين.

(49) عيون الأنباء ص 532.

(50) ابن رشد والرّشديّة ص 438.